العودة المتخيلة ـ المستقبل

حسن خضر*

هناك انتظرت!!

لم يتوقف المطر أياماً طويلة إلى حد أن أحداً لم يعد مهتماً بالعد. فاضت الوديان، وجرفت السيول كتلاً مختلفة الحجم والشكل من الحجارة، والطين، والأغصان، وجثث قوارض ركضت أمام مياه كانت أسرع منها، وماعز سقطت من أعلى التلال، وإطارات سيارات، وكل ما يخطر على البال من مخلفات الإنسان، على الطرق الرئيسية والفرعية التي اختفت ملامحها في بعض المناطق.

قال البعض، في تجمعات فرضتها ضرورة المشاركة في تدعيم جدار تداعى، أو سقف أصبح آيلاً إلى السقوط، وفي سهرات مسائية حول مواقد الحطب، ومجالس العزاء، في قرى تقطعت بها السبل، إن ما يحدث نجم عن تغيرات مفاجئة طرأت على المناخ، في كل مكان آخر من العالم، وقال آخرون إنه الغضب الإلهي.

لكن أحداً لم يفهم حقيقة ما يحدث في كل مكان آخر، حتى إن كان لا يبعد عنه سوى كيلومترات قليلة. فالبث التلفزيوني توقف، وتوقفت معه خدمات الإنترنت والهاتف، والكهرباء، والبث الإذاعي لم يعد مصدراً صالحاً للحصول على المعلومات لأنه أصبح متقطعاً، ولأن قلّة قليلة من الناس تملك أجهزة الراديو، والمتوفر منها نفدت بطارياته بعد أيام قليلة. وتحول بعض مَن فقدوا قدرة الحصول على الأخبار إلى منتجين لها. فلا شيء يعطّل كفاءة الإنسان في صناعة الأخبار بنفسه.

كان بعض الأخبار نتاج مخيلة جامحة، لا تعوزها السذاجة، أو غواية التذاكي، أحياناً، والبعض الآخر ابتكر إضافات، وتعديلات، متفاوتة البراعة، على وقائع فعلية شهد بصحتها الجميع. فأصوات الرصاص التي تخفت وتعلو، لا تنقطع في أغلب ساعات الليل والنهار. والمروحيات، والطائرات المسيّرة عن بعد، لا تكاد تغيب، وإن لم يروها بأم العين في النهار، فإنهم سمعوا هديرها في الليل. مَنْ يُطلق النار على مَنْ؟ كان هذا هو المجال الحيوي لكل مخيلة يجب أن تكون خصبة، وإلا أُصيب صاحبها بالجنون.

قال البعض إن جماعات من الفدائيين الذين تدربوا، ونظّموا صفوفهم، في صمت

* كاتب فلسطيني.

وسرّية، على مدار أعوام طويلة، من دون أن يدري، أو يسمع بهم، أحد، أعلنوا الثورة، وتحصنوا في المناطق الجبلية والريفية، وقطعوا الطرق بين المدن والقرى، والمستعمرات، لكن أحداً لم يرهم. ولم تكن أيمان مَن زعم أنه رآهم من قريب أو بعيد، أو تكلم معهم، قبل أيام، أو أسابيع قليلة، أو حتى أنه يعرف عنهم ما لا يجوز البوح به، مقنعة بالقدر الكافي، فقد رأى آخرون، أقل خيالاً، أعمدة دخان تتصاعد من مستعمرات قريبة، وقت تحليق الحوامات، وبعد دوي انفجارات قوية، ومن المستبعد أن يكون الفدائيون قد حصلوا، بطريقة ما، على حوامات، أو أن تكون لديهم الخبرة الكافية لتشغيلها، أو أن يكون الإسرائيليون قد فقدوا السيطرة على الأجواء، فجاءت طائرات من مكان آخر.

الطرق لم تعد آمنة. فمَنْ غادروا بحثاً عن المؤن، أو عن أشخاص غادروا قبلهم، لم يعودوا منذ أيام، ولم يحاول أحد وضع خاتمة محتملة، بطريقة مقنعة، لما قد يكون أصابهم: جرفهم السيل، أو أودت بهم رصاصات طائشة، أو أصبحوا رهائن، أو التحقوا بالفدائيين في الجبال، أو ربما حُوصروا في مكان ما. الكل يزعم أنه لم يفقد الأمل بعد.

لم تكن الطرق آمنة تماماً منذ بداية العام، ومنذ سرت شائعات عن إحباط محاولة انقلابية دبّرها مستوطنون، وبعض العسكريين. لم يصدق أحد أن شيئاً كهذا حدث، أو يمكن أن يحدث. لكن موجة الصدامات الدامية بين الكانتونات والمستعمرات، وما تخللها من هجمات، وهجمات انتقامية مضادة طالت البشر والزرع والحجر، في ظل انفلات كامل للوضع الأمني، وشبه غياب للجيش الذي بدا كأنه فقد السيطرة، جعل حتى من أغرب الشائعات، وأقلّها صدقية، بضاعة رائجة.

بيد أن بعض الشائعات كان أكثر قابلية للاحتمال من غيره، فمَن نجحوا في التقاط البث الإذاعي، قبل انقطاعه بشكل كامل، سمعوا عن إضرابات شلّت الحياة في مدن إسرائيلية مختلفة، وعن صراعات بين أجنحة في الحكومة، وعن استقالات جماعية، وتظاهرات تخللتها أعمال عنف، وفرض حالة الطوارئ، بعدما أعلن قادة المستوطنين قيام واستقلال دولة "يهودا والسامرة" اليهودية، والتي ترجمت الاستقلال بتشكيل ميليشيا ونصب حواجز على الطرق المؤدية إلى المستعمرات، بينما اختفت حواجز الجيش على الطرق الرئيسية والفرعية، وفق آخر ما وصل من أخبار.

والواقع أن هذا كله لم يعد جديداً، وفقد الناس، مع مرور الوقت، شهية استهلاك، وإنتاج، وإعادة تدوير الشائعات. فأولوياتهم في التفكير والتدبير لم تعد تكفي لأكثر من الاقتصاد في استهلاك ما تبقّى من مؤن، وتدبير ما يمكن توفيره من حقول مجاورة، أو حاكورة منزلية، وتأمين مداخل القرى بمتطوعين تسلحوا بقضبان حديدية، وهراوات، وسكاكين، كانت في أغلب الأحيان سلاحهم الاستراتيجي الوحيد.

لذا، ارتبكوا في ذلك الصباح عندما أفاقوا على هدوء لم تنجح في تبديده زخات مطر متقطعة، كأن المطر حبس أنفاسه قدر المستطاع. كان الهدوء أكثر إثارة للقلق من ضجيج ألِفوه وتآلفوا معه على مدار وقت لم يعد أحد يهتم بحسابه، كأن في الهدوء المفاجئ ما أعاد

تذكيرهم بحقيقة ما أصابهم من إعياء، وكأن في اكتشاف هذا القدر كله من العناء ما يوحي بارتكاب جرم من نوع ما. والأدهى، لم يكن في هدوءٍ حلّ هكذا على الكون، بلا مقدمات، ما يحرّض على ضرورة القيام بفعل ما.

لكن أولويات ما مضى من أيام سرعان ما حررتهم من طمأنينة الشلل، فالهدوء المفاجيء الذي حل عليهم من السماء ربما لا يطيل الإقامة على الأرض.

وكمَن يعيد اكتشاف المشي بعد رقاد طويل، نهضوا بآذان مرهفة، وسيقان ثقيلة، وعيون لا تستقر على شيء بقدر ما تدور في أكثر من اتجاه، في وقت واحد، على أمل الوصول إلى حقول كفّوا، في الآونة الأخيرة، عن مغامرة الاقتراب منها، فثمة أعشاب برّية، وأشجار مثمرة. وكلما ابتعدوا أكثر لاحت في الأفق، فوق تلال بعيدة، أشباح أشخاص يشبهونهم كانوا في الطريق إلى حقول تشبه حقولهم. والأرجح أن رؤية آخرين زادتهم شجاعة.

وما بعد هذه النقطة، بالذات، تختلف الروايات. فالهدوء لم يعمَّر طويلاً في بعض المناطق، وإن اتسمت الاشتباكات بحدّة أقل، وبعض مَن ذهبوا بحثاً عن أعشاب برّية، وأشجار مثمرة، في الحقول، غامروا بالذهاب إلى أبعد منها، وعادوا قبيل حلول المساء لا بما جمعوا من ثمار وأعشاب برّية فحسب، بل بأخبار طازجة، أيضاً، ومنها أن المستعمرات القريبة خلت من سكانها، وأن المشكلة الأهم في الوصول من مكان إلى آخر لم تعد حواجز الجيش والمستوطنين، وإنما ما تداعى من طرق على حوافي التلال، وما تراكم عليها من مخلفات السيول.

ولا يعرف أحد، بالضبط، كم احتاج هؤلاء من وقت قبل التحقق من هرب المستوطنين، واختفاء الحواجز، ومدى صلاحية الطرق، ولا حتى كيف فعلوا ذلك، وكم دفعوا من أثمان. وهنا تختلف الروايات، ولا تنجو، كالعادة، من الاختزال والمبالغة. وهذا، أيضاً، ما سيختلف عليه المؤرخون، حتى التاريخ الشفوي الذي جرى تدوينه في وقت لاحق، كما أن شهادات أشخاص ما زالوا في قيد الحياة، لم تحسم الأمر بعد.

كل ما في الأمر أنهم كلما ذهبوا أبعد، وسمعوا أكثر، عثروا على أولويات جديدة لم تخطر لهم، حتى قبل أيام قليلة، على بال. فلا أحد، مثلاً، يعرف مَن كان أول المبادرين، وكيف اجتمعت وهبطت تلك الأشباح عن رؤوس التلال، وخرجت من قرى بعيدة وقريبة، ومن مخيمات على حوافي المدن، ومن مدن مخيمات، بما يشبه سيلاً بشرياً جرف ما خلّفت السيول على الطرقات، ومشى في اتجاه الجدار.

لقد فعلوا ذلك، في البداية، بطريقة مضحكة، فالقضبان الحديدية خدشت الأسمنت المسلح، لكنها لم تكن كافية لتقويضه. كانت تلك، على الأرجح، ردة فعل غاضبة على طريقة مَن يلطم شخصاً على وجهه على سبيل الإهانة، لكنهم سرعان ما ابتكروا وسائل أقل رمزية، وأكثر كفاءة، وعلى الجانب الآخر للجدار فعل آخرون، بينهم إسرائيليون، الشيء نفسه.

لم يخلُ الأمر، بالتأكيد، من اشتباكات في مقاطع متعددة، وحتى من سقوط ضحايا. يبدو المشهد، مرئياً من مسافة زمنية آمنة، في كتب المؤرخين، وشهادات الشهود، مثل حركة بطيئة

في فيلم صامت، لكن في رمزيته هديراً أعلى كثيراً من صخب الناس، في اليوم المشهود، على الأرض.

لماذا تفكك النظام الكولونيالي، بهذه السرعة، وبهذه الطريقة؟ هل كان ذلك نتيجة موضوعية للحرب الأهلية التي أهلكت الزرع والضرع في البلد، بعد محاولة المستوطنين الانقلابية؟ وهل كان النظام مريضاً، بالفعل، على مدار أعوام طويلة، كما يقال؟ وهل كان تنظيم الفدائيين السري حقيقة أم مجرد شائعة أنجبتها مخيلة تقليدية تماماً؟ وكيف ولماذا ومتى خارت قوى النظام، وتخلّعت أسنانه، وأدركت الجبهة المعادية للمستوطنين أن خلاصها من خلاص الفلسطينيين؟

هذه، وغيرها، أسئلة المؤرخين، وما اجتهد في تدوينه الرواة. لم يكن الأمر سهلاً في اليوم التالي، بالتأكيد، ولم يتضح معنى هذا كله بصورة كافية، ودفعة واحدة. ثمة تفصيلات صغيرة وكبيرة، وما لا يُحصى من جروح لم تبرأ بعد.

الجنة في الخيال أفضل منها في الواقع. كل ما في الأمر أن البعض لم يكفّ عن المشي على طرق موحلة غامت ملامحها على الأرض، منذ زمن بعيد، ولم تغب عن الذاكرة، وأن آخرين جاؤوا في وقت لاحق من أماكن وبلاد بعيدة، أولاداً وبنات بينهم مَن لا يتكلم العربية، أيضاً، جاؤوا بحثاً عن أجداد لم يعرفوهم إلاّ بالاسم، وأخذهم حنين غامض إلى أماكن عاشت في ذاكرة ورثوها عن آباء في منافٍ قريبة وبعيدة.

أراهم الآن، أرى الأولاد والبنات، وبينهم وجوه مَن كنتُ جسرهم إلى الحياة. لن أمشي معهم على تلك الطريق، ولن أدلهم على ذلك المكان، الذي لنا، فقد سبقتهم بأعوام طويلة، وهناك انتظرت. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

رام الله العثمانية: دراسة في تاريخها الاجتماعي ١٥١٧ – ١٩١٨

سميح حمودة

تقديم: سليم تماري

٤٢٥ صفحة ١٢ دولاراً